الفصل العاشر

الواقـع

الانتقال من المظهر إلى الواقع انتقال سهل . فقد كنا بصدد سلسلة من المقولات المزدوجة ، كل واحدة منها تضم جانبا يمثل الماهية وجانبا آخر يمثل تجلى الماهية أو المظهر ثم أصبحت عن الماهية داخلا واصبح المظهر خارجا . ولكن توحيد الداخل والخارج هو توحيد الماهية والمظهر . هذه الوحدة الجديدة هى الواقع . فالواقع اذن تركيب للماهية والمظهر .

إن الواقع ليس مجرد الداخل ولا مجرد الخارج . إنه هذا وذاك . ولكن التمايز بينهما لا يزول زوالا كاملا فى التركيب ولكن يحتفظ به داخل الواقع. فالماهية تعبر عن نفسها تعبيرا كاملا فى المظهر . والمظهر بدوره لا يقل أهمية عن الماهية .

ويبين هيجل هنا أن القول بأن العالم الخارجى هو وحدة الواقع ، ليس صحيحا إلا صحة جزئية . وهو يمثل وجهة نظر المذهب المادى ووجهة نظر الحس المشترك . ولكن القول بأن العالم الخارجى وهم وبأن الواقع هو الماهية الداخلية هو أيضا قول ليس صحيحا إلا صحة جزئية . وهو يمثل وجهة نظر الفلسفة الهندوية ووجهة نظر الإيليين . والنظرة الصحيحة هى أن الداخل لابد أن يتجلى فى الخارج . الواقع إذن ماهية تكشف عن نفسها وتظهر . ومن هنا نقول إن العالم الخارجى ليس قناعا يخفى عنا الوجود الداخلى وإنما هو على العكس يعلن هذا الوجود ويكشف عنه . ومعرفتنا بالخارج هى نفسها معرفتنا بالداخل .

وهنا ينتقل هيجل لتبيان أن المعقول وحده هو الواقع ، فليس كل موجود مشخص بواقع . الشر مثلا ليس واقعا . ويحاول هيجل أن يبين كيف إن تعريف الواقع بأنه وحدة الداخل والخارج يتضمن فكرة الضرورة وان هذه الضرورة

تتمضن المعقولية . ولا يقصد هنا بالضرورة الضرورة الميكانيكية ولكن الضرورة المنطقية. وهذا ما أوضحناه فى فصول سابقة . والطابع الضرورى للواقع هو الذى يقصده هيجل بقوله : كل معقول واقع ، وكل واقع معقول. وهذا القول يعنى أيضا أن المعقول وحده فى العالم الخارجى هو الذى يكشف عن الوجود الداخلى للكون .

والواقع إن مثل هذه النظرة متضمنة فى كل مذهب مثالى . لأن المطلق فى هذا المذهب هو العقل . وينتج عن ذلك أن المعقول فى العالم هو وحده الذى يكشف عنه .

واذا كان الواقع يعنى الضرورة فان الواقع يظل مركبا من الداخل ومن الخارج اذا نظر الى الداخل فى حد ذاته سمى بالامكان لأنه يخضع لمبدأ الذاتية ولا يضم أى تناقض داخلى. وكل ما ليس متناقضا فهو ممكن . وإذا نظر إلى الخارج فى حد ذاته سمى بالجواز ، فهو إذن ليس بالضرورى .

أما الضرورة المنطقية فهى التى تملك أساسها فى ذاتها كما هو الحال فى البديهيات وأما الجائز فأساسه فى غيره . وهذا الغير يجد أساسه فى جائز آخر وهكذا . ولكن هذه المنظومة من التعيينات الخارجية تمثل الضرورة أيضا. ولكنها ضرورة ميكانيكية لا عقلية . فالجائز بهذا المعنى ضرورى . ولكن هيجل يريد أن ينتقل من الضرورة الميكانيكية الى الضرورة العقلية ويتم هذا الانتقال بالقول: إننا إذا أخذنا الوجود ككل فانه يمثل لنا ضرورة يكون الجواز عنصرا داخليا فيها . إن الكل هنا ليس جائزا أو ممكنا لأن أساسه لا يوجد خارج ذاته. ومع ذلك فإن الجواز جزء من الضرورة الكلية . فإذا انتهى هيجل إلى أن الواقع يعنى الضرورة والمعقولية انتقل إلى شرح دائرة مقولات الواقع وهى تتمثل فى مراحل ثلاث : (١) الجوهر والعرض . (٢) العلة والمعلول . (٣) التأثير المتبادل «الفعل ورد الفعل» .

١ - الجوهر والعرض

الواقع كما رأينا هو ما يملك اساسه فى نفسه ، ولكن ما يعين ذاته بذاته هو الجوهر ، أما ما يحتاج لغيره من أجل أن يوجد فهو عرض . ولكن وحدة الجوهر تتعين فى كثرة الاعراض الخارجية . فالجوهر يتجلى بأعراضه كما تتجلى الوحدة فى الكثرة .

ومقولة الجوهر هى المقولة التى نظر اسبينوزا من خلالها إلى العالم . فالمطلق عنده هو الجوهر وهذا جانب حق فى فلسفة اسبينوزا . فالجوهر مرحلة ضرورية فى التطور الذاتى للفكرة المطلقة . ولكن هذه الفلسفة تظل ناقصة لأن المطلق ليس مجرد جوهر ولكنه كما سنرى ذات أو روح .

٢ - العلة والمعلول

ان العرض فى المقولة السابقة بوصفه شيئا آخر غير الجوهر ينفى الجوهر. ولكن الجوهر بدوره يرد العرض اليه وينفيه . إنه نفس النفى ، وعنصر النفى هذا يمثل نشاطا أو قوة . إنه جوهر فاعل .

إن وحدة الجوهر والعرض تجعل من العرض جوهرا بدوره، ولكن جوهر منفعل وبهذا نصل الى مقولة العلة والمعلول . فالجوهر الفاعل هو العلة والجوهر المنفعل هو المعلول .

٣ - التأثير المتبادل

تتعلق العلة إذن بالتمييز بين جوهر فاعل وجوهر منفعل . ولكنه هذا التمييز لا يستطيع أن يستمر . فالانفعال تجريد فحسب . ذلك أن ما هو منفعل هو فى الوقت نفسه فاعل.

وبيان ذلك نظريا هو أن المعلول كالعلة جوهر . والجوهر كما رأينا قوة ونشاط. وبذلك يزول التمايز بين العلة والمعلول. فكل منهما علة وكل منهما معلول. فالجوهر (أ) بوصفه جوهراً فاعلا يؤثر فى الجوهر (ب) بوصفه منفعلا.

ولكن الجوهر (ب) بوصفه فاعلا يؤثر أيضا فى الجوهر (أ) . وهذا هو التأثير المتبادل . أما من الناحية الاختبارية نجد إن الحرارة تذيب الشمعة . ونحن نقول إن الحرارة كجوهر فاعل هى علة ذوبان الشمعة كجوهر منفعل . ولكن الذوبان لا يتم إلا لان طبيعة الشمعة تتحمل الذوبان بالحرارة . فطبيعة الشمعة إذن علة ايضا للذوبان . إنها جوهر فاعل أيضا .

وبما أن مقولة التأثير المتبادل تقربنا من مقولات المعنى فإننا نجد أمثلة عليها فى الحياة الروحية والاجتماعية للإنسان . فنحن نجد صعوبة كبرى فى أن نعين العلة والمعلول فى الحياة الاجتماعية .

فهل القوانين التشريعية فى أمة ما هى معلول لخصائص هذه الأمة، أم أن خصائص هذه الأمة هى معلول للقوانين التشريعية فيها . إن مقولة التأثير المتبادل تساعد على فهم العلاقة بين خصائص الامة وبين قوانينها .

ولكن هذه المقولة تنطبق فى جميع مستويات الوجود لأن جزء من العالم إنما يؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة بكل جزء آخر.

– ينتهى بذلك استنباط مقولات المعنى . ويقابل هذه المقولات تسلسل المذاهب الفلسفية فى التاريخ . فمذهب بارمنيدس وهيراقليطس يقابلان مقولات الوجود واللاوجود والصيرورة . والفلسفة السابقة على فلسفة هيجل كانت تمثل مقولات الفهم أى مقولات الماهية كالجوهر والعلية والتأثير المتبادل . فاسبينوزا يمثل الجوهر وهيوم يمثل العلية و «كانْت» يمثل التأثير المتبادل . «فكانت» مثلا يلح فى فلسفته على أن عالم التجربة هو نتيجة التأثير المتبادل بين الاشياء فى ذاتها وبين الصور القبلية للعقل . أما المقولة التى تمثل فلسفة هيجل والتى يتجاوز فيها كل الفلسفات السابقة، فهى مقولة المعنى .

مقولات الماهية

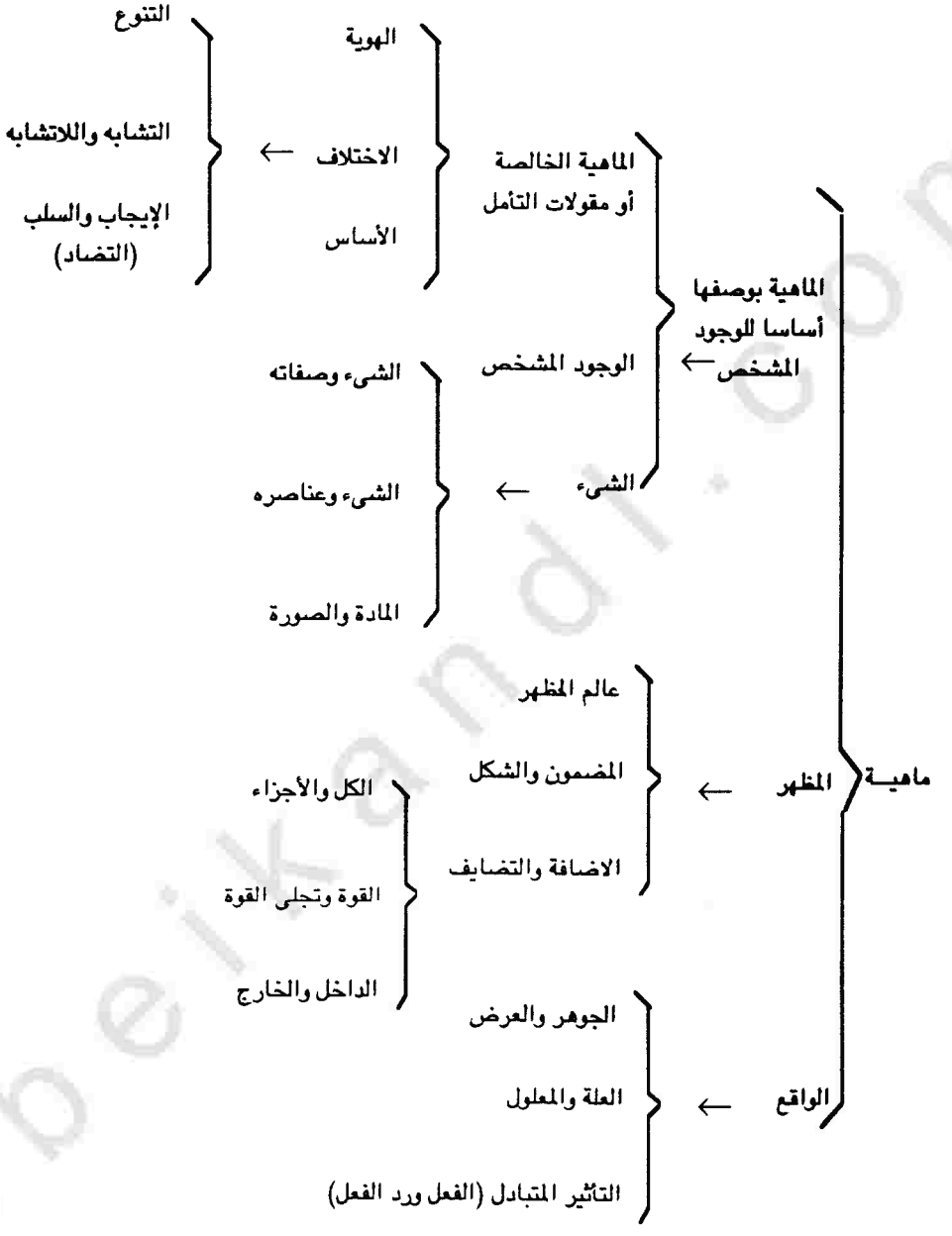

obeikandi.com